# ٥ ـ أعيان القرن الرابع عشر

للعلامة المغفور له احمد باشا تيمور

## الشيخ محمد العباسي المهدي

الحنفي

هو ابن الشيخ محمد امين، ابن الشيخ محمد المهدي الكبير الشافعي، كان جده المذكور من الأقباط، فأسلم على يد الشيخ العلامة محمد الحفني، وقرأ عليه وعلى أخيه الشيخ يوسف الحفني وغيرهما حتى صار من كبار العلماء، وترشح لرياسة الأزهر بعد الشيخ الشرقاوي ولكنها لم تتم له، وتولاها الشنواني، وقد أطال الجبرتي في ترجمته. ثم نشأ ولده الشيخ محمد امين عالماً حنفياً وتولى الفتوى بمصر زمناً، وتوفي سنة ١٢٤٧ .

وولد المترجم باسكندرية سنة ١٢٤٣ فقرأ بها بعض القرآن، ثم حضر الى القاهرة سنة ١٢٥٥ فأتم حفظه، واشتغل بالعلم سنة ١٢٥٦ فقرأ على الشيخ ابراهيم السقاء الشافعي، والشيخ خليل الرشيدي الحنفي، والشيخ البلتاني وغيرهم، ثم صدر أمر ابراهيم باشا بن محمد علي بتوليته افتاء الديار المصرية في منتصف شهر ذي القعدة سنة ١٢٦٤ وهو في نحو الحادية والعشرين من سنيه، ولم يتأهل بعد لمثل هذا المنصب الكبير، ويقال إن السبب في ذلك عارف بك الذي تولى القضاء بمصر، وكانت له صلة بأبي المترجم. فلما ذهب ابراهيم باشا الى القسطنطينية ليتسلم من السلطان مرسوم ولايته على مصر قابله عارف بك، وكان إذ ذاك شيخاً للاسلام وأوصاه خيراً بذرية الشيخ المهدي، وأن يولي منهم من يصلح لمنصب أبيه، فكان همه السؤال عنهم بعد عودته لمصر، وطلب المترجم لحضرته فصادفوه في درس الشيخ السقاء يحضر مقدمة مختصر السعد، فركب اليه وهو بين الخوف والرجاء، ولما قابله أثنى عليه لاشتغاله بالعلم، ثم أنبأه بأنه ولاه منصب الفتوى بمصر، وعزل عنه الشيخ احمد التميمي الخليلي وخلع عليه خلعة هذا المنصب، ثم عقد له مجلساً بالقلعة حضره حسن باشا المنسترلي والشيخ مصطفى العروسي وغيرهما، فأقروا على اقامة أمين للفتوى يقوم بشؤونها حتى يتأهل صاحبها لها ويباشرها بنفسه، واختاروا له الشيخ خليلاً الرشيدي الحنفي بدل الشيخ علي البقلي أمين فتوى التميمي، ونزل المترجم من القلعة بموكب كبير من العلماء والأمراء ووفد الناس على داره للتهنئة، ومدحه الشعراء، فمن ذلك قول الشيخ محمد شهاب :

عز يا عزة الحمى أن تقاسي     بمهاة الصريم فيما تقاسي

ومنها قوله :

تب مفتي الهوى وتبت يداه     ضل شرعيّ نهجه والسياسي
فدعيه يا عز عز اصطباري     انّ فتواه فتنة للناس
ولئن قلت أي فتوى البرايا     حكمت بالنصوص دون التباس
وارتضاها الزمان قل لي وأرخ     قلت فتوى مهديه العباسي
١٢٦٤

وهي قصيدة طويلة ألحق بها هذه الأبيات الثلاثة مشيراً فيها الى التميمي والى الرشيدي أمين الفتوى الجديد

قلت لما أن تم بدر التميمي     واعتراه نقص الخسوف الشديد
رجع الدر بالفتاوى الى ما     كان فيه من المكان المشيد
فلنعم الرشيد يا ابن أمين     ولنعم الأمين يا ابن الرشيدي

وروى الفاضل محمد افندي التميمي في الترجمة التي جمعها لأبيه الشيخ احمد التميمي ان سبب عزله عن الافتاء أحقاد قديمة كانت

---

بروتوبلازم صرف، وهي قطرة صغيرة من المادة الجلاتينية تعيش في الماء. وقد حاول كثيرون أن يصنعوا الاميبا من المواد الكيمائية التي يتألف البروتوبلازم منها فعجزوا عن ذلك. فالمواد مضبوطة والنسبة بينها صحيحة والأحوال المحيطة بها ملائمة تمام الملاءمة، ولكن الشرارة الحيوية لا وجود لها، اذ الله وحده هو الذي يصنع الحياة

قال البروفسور آرثر طمسن: « لا مناص لنا من التسليم بالأولية التي وضعها ارسطو طاليس وهي أنه في كل سلسلة من الأعمال المتصلة لا يمكن أن يظهر في آخرها شيء لم يكن نوعه موجوداً في أولها. ولذلك فان عقلنا وقصة تحرره يقودان راجعين بنا شيئاً فشيئاً الى العقل الأعظم الذي بغيره لم يكن شيء مما كان »

وبعبارة أخرى أنه كيفما فحص العالم تركيب الكون ونواميس الطبيعة ونشوء الحياة حتى عقل الانسان لم ير مفراً من التسليم بأن وراء القصد الأعظم يد الله .

م . م

فى صدر ابراهيم باشا منه بسبب معارضته له فى أمور تخالف الشرع كان يريدها ويعارضه الشيخ فيها ، فلا يجد بداً من الاذعان بسبب اقبال أبيه محمد على على الشيخ ، فلما تخلى عن ولاية مصر وتولاها ابراهيم كان أكبر همه عزله عن الافتاء . انتهى .

ثم أكب المترجم على الاشتغال بالعلم خصوصاً الفقه حتى نال منه حظاً وافراً ، وجلس للتدريس بالأزهر لاقراء الدر المختار فقرأ منه الى كتاب الطلاق وأكمل قراءته فى داره ، وقرأ الأشباه والنظائر فى داره أيضاً ، وباشر أمور الفتوى بعفة وأمانة وتدقيق وتحقيق ، واشتهر بين الناس بالحزم والعزم وعدم ممالأة الحكام ، وحسبك وقوفه فى وجه عباس باشا الأول وتعريضه نفسه للتهلكة صيانة لما استودع من أمانة العلم ، وسبب ذلك ان هذا الوالى أراد أن يمتلك جميع ما بيد ذرية جده محمد على مدعياً انه ورد مصر لا يمتلك شيئاً ، فكل ما خلفه لذريته إنما هو من مال الأمة يجب رده اليها ، ووضعه بيد أمينها المتولى شؤونها ، واستفتى المترجم فلم يوافقه وأصر على الامتناع ، ولم يحفل بوعيده وتهديده حتى طلبه فجأة الى بنها فسافر اليها وهو موقن بالهلاك ، وكان معه عند طلبه الشيخ أبو العلاء الخلفاوى ، فسافر معه لمؤانسته ومواساته ، فلما وصلا قصر بنها روجع المترجم فى الفتوى فأصر على قوله الأول ، فأمر بهما فأنزلا الى سفينة بخارية سافرت بهما ليلاً فى النيل لنفى المترجم الى أبى قير ؛ واعتراه لشدة وجله زحير كاد يودى به وهو مع ذلك مصر على قوله ، والشيخ أبو العلاء يهون عليه الأمر ويؤانسه بالكلام الى أن صدر الأمر بارجاع السفينة ، وأنزلا منها وأمرا بالسفر الى القاهرة وسلم الله . فكانت هذه الحادثة سبباً لعلو قدر المترجم فى النفوس واعظام الولاة فمن دونهم لشأنه ؛ وتسبب منها أيضاً إقباله على الشيخ أبى العلاء المذكور وسعيه له فى المناصب التى تولاها وعظم بها أمره بعد ذلك .

ثم لما كانت سنة ١٢٨٧ والمتولى على انقطر الخديو اسماعيل باشا ، وكان انحرف عن الشيخ مصطفى العروسى شيخ الأزهر ، فأراد عزله ولكنه خشى الفتنة ، لأنه شىء لم يقع من قبل لأحد من مشايخ الأزهر ، فأخذ فى جس نبض العلماء وسبر غورهم فى ذلك ، فهون عليه الشيخ حسن العدوى الأمر ، وأوضح له أنه وكيل الخليفة ، والخليفة أن يعزل من يشاء ، والوكيل له ما للأصيل ، فسر الخديو وبادر الى عزل الشيخ العروسى فى أواخر السنة المذكورة ، وكان العدوى يطمع فيها ، وما قال ما قال إلا توطئة لنفسه فأخلف الله ظنه ، وصدر أمر الخديو فى منتصف شوال بتولية المترجم والجمع له بين منصب الافتاء ومنصب الأزهر ، فاستدعاه وخلع عليه وأنزله من عنده بالموكب المعتاد . فباشر شؤون منصبه بحزم وعزم وتؤدة وتعقل ، وكان أول ما صدر منه سعيه لدى الخديو باعادة ما كان لأهل الأزهر من المرتبات التى أبطلت زمن عباس باشا ، فوافقه على ذلك وأعيدت المرتبات الشهرية والسنوية ، ثم استصدر أمراً من الخديو بوضع قانون للتدريس ، فأجابه الى ذلك ووضع قانون الامتحان ، وكانوا قبل ذلك لا يمتحنون بل كان من تأهل للتدريس تصدر له ، فيحضر أول درس له شيوخه وغيرهم من كبار العلماء ، ويناقشونه فان وجدوه أهلاً أقروه وإلا أقاموه .

ولم يزل المترجم سائراً فى طريقه المحمود ، ملحوظاً بعين التبجيل من الحكام ، وبين الخاص والعام ، حتى ثارت الثورة العرابية المشهورة ، ورأى فيه العرابيون أنه ليس بالرجل الذى يوافقهم ويساعدهم فى مطالبهم ، فكان من جملة ما طلبه عرابى باشا من الخديو لما زحف بالجيش على قصر عابدين عزل المترجم من الأزهر ، فعزل عنه فى المحرم سنة ١٢٩٩ ، وتولى عليه بدله الشيخ محمد الانبابى ، وانفرد هو بالافتاء ، ثم تجسمت الفتنة وجاهر العرابيون بطلب عزل الخديو ، وكتبوا قراراً بذلك أجبروا العلماء والوجهاء على التوقيع عليه ، فامتنع المترجم من موافقتهم على ذلك ، وقال لحامل القرار : أنا لا أوقع بيدى ، فاذا كان فى الأمر غصب فان ختمى معى خذوه ووقعوا أنتم بأيديكم كما تشاءون . فانحرف عنه العرابيون وضايقوه وبثوا عليه العيون حتى احتجب فى داره التى على الخليج بالقرب من مدرسة الفخرى المشهورة بجامع البنات ، وتحامى الناس زيارته ، وصار لا يخرج منها إلا لصلاة الجمعة فى أقرب مسجد اليه ؛ ومرت عليه أيام وليال قضاها فى انتظار حتفه فى كل ساعة تمر به ، حتى كانت الهزيمة الكبرى على العرابيين ، وتشتت شملهم ، وعود الخديو الى مقر ملكه فى ١٢ ذى القعدة من تلك السنة ، فذهب المترجم فيمن ذهب للسلام عليه وتهنئته بالظفر ، ودخل مع العلماء فخصه الخديو بترحيب

ورعاية زيادة عمن معه من العلماء تقديراً لحسن بلائه فى الاخلاص له مدة الفتنة ؛ ولحظ الشيخ الانبابى شيخ الأزهر إغماضاً عنه من الخديو ، وخشى أن يعزله ليعيد العباسى ، فقال بيدى لا بيد عمرو ، واستقال بعد أيام ؛ فأصدر الخديو أمره يوم الأحد ١٨ منه باعادة المترجم الى الأزهر ، علاوة على منصب الافتاء الذى بيده ، ونصه موجهاً لرئيس النظار :

( إنه بناء على استعفاء حضرة الأستاذ الشيخ محمد الانبابى من وظيفة مشيخة الجامع الأزهر ، ووثوقنا بفضائل وعالية حضرة الأستاذ الشيخ محمد العباسى المهدى ، قد اقتضت ارادتنا توجيه هذه الوظيفة لعهدته كما كانت قبلاً ، علاوة على وظيفة افتاء السادة الحنفية المتحلى بها من السابق ، وصدر أمرنا للسامى اليه بذلك فى تاريخه ، ولزم اصدار هذا لدولتكم إشعاراً بما ذكر فى ٢ اكتوبر سنة ٨٢ الموافق ١٨ ذى القعدة سنة ٩٩ ) .

فتمت للمترجم رياسة الأزهر على رغم أنف كثيرين ، فان بعض علماء الأزهر سعوا لتنصيب الشيخ عبد الهادى نجا الابيارى ، وكتبوا كتابة بذلك وأخذوا يوقعون عليها ، ويطوفون بها على العلماء ، فلم يشعروا إلا وقد فاجأهم الأمر باعادة المترجم ، وذهب سعيهم وتعبهم أدراج الرياح .

ثم استمر المترجم جامعاً للمنصبين قائماً بشؤونهما أتم قيام ، حتى كانت سنة ١٣٠٤ وفيها بلغ الخديو أن جماعة من الأعيان والتجار مثل محمد باشا السيوفى ، وأخيه أحمد باشا يجتمعون للسمر بدار المترجم فى أغلب الليالى ، فيتكلمون فى الأمور السياسية ويظهرون أسفهم من وجود الانجليز بمصر ، وموافقة الحكومة لهم فيما يحاولون ، وغير ذلك من هذه الشؤون ، فحنق الخديو وأرسل لمحمد باشا السيوفى بالحضور فلم يجدوه ، بل وجدوا أخاه احمد باشا ، فحضر الى القصر وقابل الخديو ، فوبخه توبيخاً شديدا وقال له : يخيل إلىّ أنكم تريدون إعادة الثورة العرابية ، فتبرأ من ذلك وحلف أن اجتماعهم لم يكن إلا بقصد السمر والانتناس ، ثم قابل الخديو المترجم فى إحدى المقابلات الاعتيادية فلم يهش له كعادته ، بل قال له وقت الانصراف : ياحضرة الأستاذ ، الأجدر بالانسان أن يشتغل بأمور نفسه ، ولا يتدخل فيما لا يعنيه ويجمع الجمعيات بداره . فلم يجبه المترجم إلا بقوله : أطال الله عمر أفندينا وأدام عليه العافية ، إننى ضعفت عن حمل أثقال الأزهر ، فأسأله أن يعفينى منه . ولم يكن الخديو يتوقع منه هذا الكلام ، بل كان يظنه يجيب بجواب يصرف المسألة بسلام ، فغضب وقال مستفهماً : ومن الافتاء أيضاً ؟ فقال له نعم يا أفندينا ومن الافتاء أيضاً ، ثم انصرف .

ولم يكن المترجم ممن يعزب عنهم أن مثل هذا السبب لا يدعو الى الاستقالة ، وخصوصاً أن الخديو صرفه بالحسنى مع من معهم ، ولكن كان هناك سبب أقوى أغضب رئيس النظار نوبار باشا الأرمنى ، وذلك لحادثة رفعت عنها دعوى أمام المحاكم الأهلية ، واستدعى الأمر طلب كشف رجه إحدى المخدرات للتحقق منها فامتنعت عن الاسفار محتجة بعدم جوازه فى الشريعة ، واستفتى المترجم فى النازلة ، فأفتى بعدم الجواز وشدد فى المسألة ؛ فشكا رئيس النظار للخديو وأوضح له أن الشيخ أصبح عقبة أمام القضاة معارضاً لأحكام القضاء ؛ ويقال إنه طلب منه إما أن يقيله من الوزارة ، أو يعزل المترجم . فلما قال الخديو للمترجم ما قال تيقن أن المراد عزله فاستقال . فأمر الخديو يوم الثلاثاء ٣ ربيع الثانى من السنة المذكورة باعادة الشيخ محمد الانبابى للأزهر ، وإقامة الشيخ محمد البناء للافتاء .

وبقى المترجم بداره التى على الخليج واشتغل باصلاح قسم منها تشعث فأعاده الى رونقه الأول ، وصبغ حيطانه بالأصباغ ، وهو القسم المطل على الخليج ، وصار يمضى وقته بالنظر فى شؤونه الخاصة والاشتغال بالعلم ، الى أن أعيد الى الافتاء فقط فى (١) فبقى به الى وفاته ، وأصيب فى آخر أيامه بفالج وهو يتوضأ لصلاة الجمعة أبطل حركته ، ثم تعافى قليلاً وصار يخرج فى عجلته للتنزه بدون فرجية بل بعباءة بيضاء من الصوف ، وأشير عليه بالاقامة بحلوان لجفافها ، فانتقل اليها وأقام بها برهة لم يستفد فيها شيئاً ، فعاد لداره بالقاهرة ، ووافته منيته فى الساعة الخامسة من ليلة الأربعاء ١٣ رجب سنة ١٣١٥ عن اثنتين وسبعين سنة ، بعد أن لازمه المرض نحو أربع سنوات ، فأذن له على المآذن ، وحزن الناس لموته حزناً شديداً ، وتكاثرت الجموع على داره لتشييع جنازته ، فقيل إن عدد المشيعين بلغ نحو أربعين ألفا ، والمصلين

(١) فات المرحوم أن يثبت التاريخ

عليه نحو خمسة آلاف ، ثم دفن بقرافة المجاورين فى زاوية الأستاذ الحفنى جنب أبيه وجده ، ورثاه كثير من الشعراء جمعت مراثيهم فى رسالة ألفها الشيخ عثمان الموصلي نزيل القاهرة ، وسماها «المراثى الموصلية فى العلماء المصرية» ، لأنه أضاف اليها ما رُثى به الشيخ عبد الرحمن الرافعى مفتى الاسكندرية ، والشيخ سليم القلماوى شيخ مسجد القلعة ، والشيخ محمد المغربى المتوفون هذه السنة أيضا .

وكان المترجم رحمه الله ربعة الى الطول ، مليح الوجه ، منور الشيبة ، معتدل القامة ، ذا هيبة ووقار ، مات عن ثروة طائلة وولدين هما الشيخ عبد الخالق المهدى والشيخ أمين ، ماتا بعده الواحد تلو الآخر . ولم يؤلف من التآليف سوى مجموع فتاواه الذى سماه (الفتاوى المهدية فى الوقائع المصرية) ، طبع بمصر سنة ١٣٠١ فى ثمانية أجزاء كبار . وعاش فى عز وتبجيل مدة حياته ، وتولى الافتاء مدة ابراهيم باشا وعباس باشا الأول وسعيد باشا واسماعيل باشا وتوفيق باشا ، أى أربعين سنة من سنة ١٢٦٤ الى سنة ١٣٠٤ لم يعزل فيها ، فلم تحفظ عليه بادرة خطأ أو مخالفة للشرع ، وسبب ذلك أنه تولاه وهو صغير والعيون شاخصة اليه ، فكان لا يفتى فتوى إلا بعد المراجعة والتدقيق والتعب الكثير ، فحصلت له بذلك ملكة فيه حتى صار معدوم النظير ، لا يجاريه مجار فى هذا المضمار ، وأضيف الى ذلك ما كان عليه من التقوى والتشدد فى أمر الدين ، حتى كانت مواقفه أمام الولاة لا تزيده إلا رفعة فى عيونهم لعلمهم أنه لا يريد إلا نصرة الحق ، فأحبوه وأغدقوا عليه بالانعام . ومن مواقفه غير ما ذكرناه أن الخديو اسماعيل باشا أراد مرة أن يستولى على الأوقاف الأهلية ويعوض عنها أهلها ما يقوم بمعاشهم ، فاستفتاه فى ذلك فتوقف ، وأفتاه بعضهم بالجواز ، فتكدر منه وجمع بينه وبين مخالفيه ، فناظرهم وفاز عليهم بعد ما ألفوا رسائل فى الحادثة وأكثروا من الجلبة . ولم يقتصر الولاة على مشاورته فى الأمور الدينية المختصة بمنصبه ، بل كانوا يستشيرونه فى غيرها من معضلات الأمور لما عرفوه فيه من سعة المدارك وجودة الرأى ، حتى أن اسماعيل باشا لما عزل عن مصر قال لولده توفيق باشا فيما أوصاه به : احتفظ يابنى بالشيخ المهدى فانه رجل لا نظير له . وبالجملة فمحاسن المترجم كثيرة ، ولم يكن فيه مايشينه سوى ما كان يرميه به بعض شانئيه من الامساك والتقتير ، ويضعون عليه النوادر الخارجة عن حد المعقول ، والمعروف عنه المشاهد للقاصى والدانى أن داره كانت مفتوحة للصادر والوارد ، لا تخلو مائدته يوماً عنهم ، وحسبنا أنه كان يخرج زكاة أمواله كل سنة ويفرقها على المستحقين رحمه الله رحمة واسعة وأكثر فى الأمة من أمثاله .

وكان حائزاً لكسوة التشريف من الدرجة الأولى ، ومنحه الخديو عباس باشا الثانى الوسام العثمانى الأول فى ٢١ صفر سنة ١٣١٠ هو وشيخ الأزهر الشيخ محمد الانبابى ، وقاضى القضاة جمال الدين افندى ، وسبب ذلك أن السيد توفيقاً البكرى نقيب الأشراف سافر فى هذه السنة الى دار السلطنة ، وتوصل بمساعدة الشيخ أبى الهدى الصيادى الى مقابلة السلطان عبد الحميد ، فأنعم عليه بهذا الوسام ورتبة قضاء عسكر الأناضول ، فلما بلغ مسامع الخديو أحب أن لا يكون ممتازاً عن كبار الشيوخ وهم القاضى والمفتى وشيخ الأزهر ، فأنعم عليهم بهذا الوسام ، وأرسل الى السلطان ملتمساً الانعام على المفتى وشيخ الأزهر برتبة قضاء عسكر الأناضول ، وعلى القاضى برتبة قضاء عسكر الروملى ، لأنه كان حائزاً لرتبة الأناضول ، لكن طلبه لم يصادف قبولاً .

وأحيل على المترجم قديماً أمر انتقاء القضاة الشرعيين والمفتين الذين يقامون فى ولايات القطر ومراكزه ، فكان يختار ذوى الكفايات ويتحرى فيهم النجابة والذكاء والديانة ، ويحامى عنهم لدى الحكام ، ويشد أزرهم ، فحصل له بذلك مقام لدى أهل العلم المرشحين لهذه المناصب ، وقصدوه ووجهوا وجوههم شطر داره ؛ وهو مع ذلك لا يميل مع الهوى فى تنصيبهم ، ولو كان ممن يمد اليد لجمع من هذا الوجه شيئاً كثيرا ، ثم رأت الحكومة أن يكون أمر تنصيبهم منوطاً بلجنة تؤلف بنظارة الحقانية برياسة وكيلها إذ ذاك بطرس غالى باشا ، وعرضوا على المترجم أن يكون من أعضاء تلك اللجنة فأبى .

وكان له فى المحاماة عن أهل الأزهر ومساعدتهم القدح المعلى ، وتروى عنه مواقف فى ذلك : منها أن الشيخ مصطفى العروسى مدة توليه على الأزهر استصدر من الخديو اسماعيل باشا أمراً بنفى الشيخ حسن العدوى الى إسنا وكاد ينفذ فيه لولا أنه استغاث بالمترجم فقام بناصره وذهب للخديو مستشفعاً ، ولجّ وألحّ حتى عفى عن الشيخ .